بالحياة، وأن رئتيه وعينيه وأذنيه ومعدته وأمعاءه ما تزال تقوم بوظائفها العجيبة قياماً هو في ذاته عجيبة وأي عجيبة. ولو أنّه استطاع أن يصرف فكره عن عضوه الموجوع إلى أعضائه السليمة لأذهله ما فيها من صحة ودقّة وانسجام عمّا في العضو الوجيع من شذوذ والتواء. ولكنّه لا يستطيع.

والعالم العربي اليوم مصاب في عضو من أعضائه الرئيسيّة، وهو يئن من الألم ويصيح. وينتفض ويتلوّى، ويعبس ويحرّق أسنانه ولا يطيب له شيء مثلما يطيب له التحدّث عن أوجاعه، فهو يشكوها بألسنته وأقلامه، في الصحف وبالمذياع، في المدارس والمعابد، في البيوت والأسواق وعلى قوارع الطرق. يشكوها ليل لنهار، وشكواه قد انتشرت غيوماً دكناً في جوّه البديع، وانسدلت سحباً سوداً على عينيه، وتربّعت هموماً ثقيلةً في قلبه. حتى بات لا يحسّ من جسده غير عضوه الوجيع، ولا يسمع من أصوات الكون غير صوت النعيّ، ولا يبصر من ألوانه غير لون الحداد. فكأنّ الشمس والقمر والنجوم في مأتم دائم، وكأنّ الهواء نفثات مصدور، وكأنّ الأرض مقبرة عقّمها الموت فلا حياة في رحمها ولا لبن في ضرعها. وكأنّ الله الذي ما سفر عن وجهه الكريم في أية بقعة من بقاع الأرض إلى حد ما فعل في هذه البقعة، قد انتحى من الكون ناحية